اتجاه «اللافلسفة» في الأدب الأمريكي المعاصر

بقلم اكرم الميداني

« اشعر كما لو انني في طريق مسدود
اذن انا انتهيت
كل الحقائق الروحية التي عرفتها صحيحة
لكنني لن انفك عن الشعور
بالانغلاق وحقارة النفس
وبعدم جدوى ما رايت
او فعلت او قلت
ولعلي اذا استمرت فالامور قد
ترضيني اكثر من ذلك
أما الان فليس لدي امل
وانني متعب »

بهذا البيان القصير كبيان سليمان في سفر الجامعة، قدم آلن جنسبرج قصائده المبكرة التي نشرها هذا العام في مجموعة بعنوان « مرآة خاوية » (١) وكأنه قد ناء بالمسئولية التي حملها عن جيل الصعاليك.(٢) ، فأطلق صرخته (انني متعب) .

لكنه وهو يطلق هذه الصرخة المتهالكة التي لا تحتوي على شيء من النبض الحار الذي الف ايقاع قصيدته الشهيرة « العويل The Howl » ، يشير الى موقف الكاتب الامريكي المعاصر فهو على الرغم من شعوره بالانغلاق وحقارة النفس فانه ما زال يأمل ، ويعتقد انه لو استمر فان الامور قد تتحسن . انه اليوم متعب يعيش بدون امل وقد يأتي الغد بما هو أحسن .

لقد قيل كلام طويل عن جيل الصعاليك وانهمك المغرمون بالتصنيف — وهم في الولايات المتحدة كثيرون — يصفون الادب الامريكي الحديث بانه انتقل من الجيل الضائع الى عصر الجاز ، الى جيل العزلة ، الى الجيل الغاضب ، الى جيل الصعاليك . ومنذ ان وجهت جرترود ستاين كلمتها الشهيرة لارنست همنجواي ، وهي كلمة يظن احيانا انها كانت عشواء لم يقصد بها شيء اطلاقا ، وصائدو الاثارة في المجلات الادبية او شبه الادبية يترقبون الفرص ليظفروا بأي وصف لاية حزمة من الادباء والشعراء والفنانين ، حتى اصبحت اوصاف الجيل تتغير بين الموسم والاخر كما تتغير أشكال السيارات التي تلدها المصانع في ديترويت . وقد وصف (الفرد كازن) وهو ناقد ذو مكانة ، عددا من الكتاب

---

(١) EMTY MIRROR, Early Poems by Allen Ginsberg, N.Y., Totem Press 1961

(٢) عبارة Beat Generation من العبارات التي يصعب نقلها الى لغة اخرى فكلمة Beat تحمل هنا معنى المقهور وكذلك تحمل معنى صوت الطرق على الطبل وهي سمة بارزة في ايقاع موسيقى الجاز الذي يتصل بها هذا الجيل على نحو وثيق . اما عبارة « جيل الصعاليك » فهي أقرب ما تكون الى الايضاح وقد ذكر « كنث روكسروث » في ختام مقاله عن « عدم الالتزام » الذي يعتبر من اهم بيانات الصعاليك ان هذا الجيل متجه بارادته الى الافتقار والتصعلك .

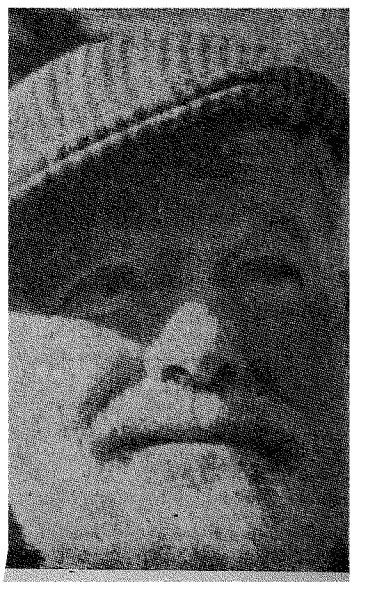

همنغواي

ميللر

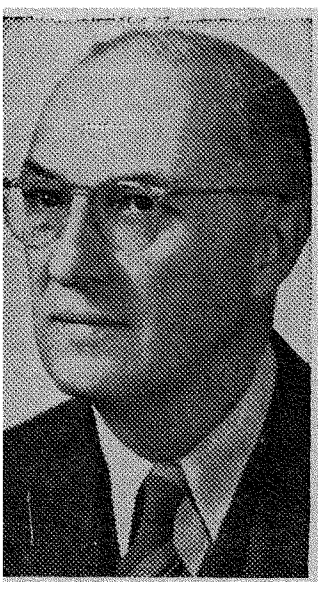

وليامز

ماك ليش

الذين ظهروا في سنوات الخمسينات بأنهم جيل العزلة(٣) وعنى بذلك ج.د. سالينجر وترومان كابوت ونورمان ميلر وغيرهم . وهم كتاب يستمدون فنهم من روح سنكلار لويس وهمنجواي وفولكنر مع قدر ملحوظ من ثورة الصعاليك وان كانت ثورتهم تبدو اكثر بناء واوضح هدفا .

ومن الصعب ان يتقدم ناقد بنفسه مائة سنة الى الامام ليزعم انه يستطيع ان يجد وصفا دقيقا غير مثير للروح السائدة في الادب الامريكي الحديث ، غير ان كثيرا من الاتجاهات التي يعتقد اليوم انها مستقلة ، لا بد وان تشير النظرة المتأملة الى انها ليست الا ظلالا او فروعا لما هو قائم فعلا في الحياة الادبية الامريكية منذ نهاية الحرب العالمية الاولى – او قبل ذلك بقليل – ولما ينحسر بعد . بل ان هناك لقاء غريبا بين الن جنسبرج الغاضب المتصعلك وبين وليام جيمس الذي يزعم فنانون ونقاد امريكيون معاصرون ان فلسفته العملية اخذت تبعث القشعريرة في أوصالهم . وقد يكون في دماء جنسبرج شيء من البير كامو ، لكن وليام جيمس لم يفارقه قط ، فالحاضر بقيمته الراهنة وبمجرد انه ليس الماضي والمستقبل يؤلف قوة عارمة اقل ما تفعله هي ان تبث قدرا خفيا من الطمأنينة . وليس هذا يعني ان الشعور بالعدم سطحي بل ان هذا الشعور يمتزج باطمئنان الى قوة ساعد الحاضر وقدرته على التغيير . والذين يعتقدون ان هذا الاتجاه ينطوي على الاجابة النهائية لا يخطون الخطوة التالية ليقفوا عند حافة الهوة وليدركوا عمق المأساة وفظاعة الموقف الدائري المفرغ الذي يسقط فيه الكتاب الامريكيون .

أدى هذا الموقف لدى هؤلاء الكتاب الى الاعتراف بان فلسفة الادب الامريكي هي « اللافلسفة » ، وان الانقياد الى اتجاه بعينه هو انحدار الفردية الاصيلة الى زحام القطيع وان كان هذا في اول الامر يستطيع ان يخلق ادبا ممتازا والا يجعل الادب الرديء ينتشر تحت عباءة الالتزام الهائلة الا انه مع الزمن قد يبلغ مرحلة متمادية ينقطع فيها الاحساس بدفء الاخر لمجرد الاصرار على الفردية والخوف من الانقياد .

ولا ينطوي هذا الرأي على اتهام للادب الامريكي المعاصر بالجمود او التهيب من الاتجاهات الحاسمة ، على العكس فهو باستثناء هذا التمادي الذي يصل لدى بعض الادباء الى حد اللامبالاة المفزعة ، يتصف بحيوية دينامية لا يمكن انكارها .

ولعل بحث ما آلت اليه حركة « جيل الصعاليك » يمكن ان ينقل هذه النظرة من حيز التجريد : فالملاحظ ان هذه الحركة التي نشطت في امريكا في السنوات العشر الاخيرة . اصبحت ذات اتجاه قبلي يلزم ادباءها وشعراءها وفنانيها بان يتخذوا المواقف الموحدة المتماثلة ، وهي بعد ان كانت ثورة على القيم الثابتة الجامدة اصبحت نفسها ذات قيم ثابتة جامدة ، واصبحت لها لغتها وطقوسها الخاصة كل التي لا تجد سبيلا الى الفكاك منها . وقد يكون هذا مصير كل اتجاه يبدأ بالتفرد ثم ينتهي باجتذاب المجموعات نحوه . الا انه بالنسبة لحركة الصعاليك يمكن القول انها كانت قصيرة العمر ، فلم يتح لها الزمن الكافي للنضج والتآكل ثم السقوط .

(3) The Alone Generation by Alfred Kazin; Writing in America Rutgers University Press, New Brunswick 1960.

لم يجد كثير من النقاد في اتجاه الصعاليك اكثر من بدعة سائرة الى الزوال ، واعتبرها اخرون امتدادا تجاريا لوجودية علب الليل التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية في فرنسا والتي وصلت متأخرة الى الولايات المتحدة، لتلتقط انقاض عصر الجاز وتبني منها حركة زائفة ، غير ان هذا الحكم بالرغم من استناده الى ظواهر صادقة ينطوي على نزعة هروبية واضحة ، فالذي لا شك فيه ان السنوات التي اعقبت الحرب الثانية مباشرة اشاعت روحا من الملل في القوى الخلاقة في امريكا ، فبينما كانت هناك محاولات جادة من الاسماء الكبيرة التي لمعت بين الحربين لتؤكد صلاحيتها للعصر كقصة « البلدة The Town لفولكنر و « الشيخ والبحر The Old Man and the Sea لهمنجواي وكلاهما تكاد تمثل نهاية الرحلة بالنسبة لهذين العملاقين ، سقط ارسكين كالدويل وجون اوهارا في حمأة اخضاع العمل الفني للجنس دون غاية سوى الاثراء ، كما عجز جون شتاينبك عن ان يأتي بعمل قيم جديد. وعندما ادخل عزرا باوند مصحة الامراض العقلية لينجو من العقاب بعد ان تعاون مع الفاشست الايطاليين اثناء الحرب ، لم يبق في الجو من سنوات العشرين والثلاثين سوى ترديدات نوستالجية لشعر روبرت فروست وكارل ساندبرج . وكانت اضواء ت.س. ايليوت القابع في لندن تخبو بسرعة فائقة ، حتى امريكيات جمس ثربر الساخرة ساورتها المرارة بعد ان انطفأ بصره نهائيا .

كل شيء يدعو اذن لهزة عنيفة ، فهذه الولايات المتحدة التي ذهبت كالطفل

فولكنر

باوند

ساندبرغ

المدلل الساذج الى اوروبا سنة ١٩١٦ لتحارب ، ثم لتتعلم بعد الحرب، حيث كان البريد يعود الى الناشرين في نيويورك بمخطوطات ارنست همنجواي وسكوت فيتزجيرالد وموسيقى جورج جرشوين ، خرجت من الحرب في صيف سنة ١٩٤٥ وقد تلوثت يداها بدماء كثيرة تعجز اقوى العطور عن ازالتها ، كما تردد الجملة الشكسبيرية الشهيرة ومن خلال العمل البطولي في القضاء على الشيطان في اوروبا انبثقت الخطيئة الكبرى في هيروشيما ونجازاكي فتسربلت الغبطة بشعور دفين من الندم واحساس قوى بالاثم وبعثت بين الامريكيين جميعا الخاطئة (جوانا بيردن) (٤) . وفي البداية هرع الفتى الآثم الى التراث والى الاباء الاولين . فالابيض الذي يزعم انه لا يستطيع حراكا امام محنة الزنجي التعس ، بدأ يردد خطب ابراهيم لنكولن واشعار والت ويتمان وعظات هرمان ملفيل . وتحول العالم المزيج من الفضيلة المسيحية والرعب الذي اكتمل على يد فولكنر والعالم الملىء حنينا الى ايام الشجاعة وركوب الصعب عندما ظن الانسان انه صانع الكون الذي صاغه همنجواي ، تحول هذا العالم الى انقاض تحلق فوقها سحب سوداء .

ظهر التمسح بوالت ويتمان وعبادته الطقسية لامريكا بآمالها وسعادتها ، اكثر من مرة في شعر هارت كرين ووليام كارلوس ويليامز بعد ان حلت محل سذاجة ويتمان وانسياقه وراء الانسان والطبيعة روح هائمة حائرة لا تكاد تلمس اطراف الغبطة ، واتضح نهائيا ان نزعة الانصهار في الارض والسجود المتصل للنهر العظيم في الجنوب قد انتهت وانه لم يعد هناك متسع للولاء..

وبالرغم من ان ادباء ونقاد ما بين الحربين لم يبذلوا جهدا عميقا لتفهم التيار العنيف الذي اجتاح روسيا بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ الا انهم — ولما يكن الذعر الماكارثي قد حل بعد — كانوا يتباهون باعجابهم بهذه التجربة . وكان هذا يفسر بانه مجرد رد فعل لحالة الانحراف في الفردية ، دون عناية حقيقية بالمذهب في حد ذاته اذ كان كثيرا ما ينشأ لدى ادباء هذه الفترة شعور كاذب بالالتزام فيجري أحدهم وراء سراب عقيدة دون اعتناقها او دون ان تعكس شيئا على اعماله . وقد كتب مرة ف . فيتزجيرالد عن نفسه انه ماركسي ووصف د.ه لورنس بانه يمثل الاتجاه السابق للماركسية (٥) في حين انه من العسير العثور على اي تأثير ماركسي في قصص فيزجيرالد وشعره ومقالاته .

حاول الجيل الذي جاء بعد الحرب الثانية مخلصا ان يلتمس في الماركسية حلا ، وفي ذكرياته رواسب من ايام البراءة ، ايام القوة الدافقة التي كانت وليدة البيوريتانية البروتستانتية والتي اتاحت لمدرسة نيوانجلند الادبية في القرن التاسع عشر نموا وازدهارا ، ووجه الشبه بين الماركسية والبيوريتانية ان كلاهما صارم يزعم القدرة على تهذيب الابداع الانساني دون ان يذهب شيء منه هباء . على ان الواقعية الاشتراكية كانت في تماسكها الهندسي الجليدي اقل قدرة من البيوريتانية البروتستانتية — لو بعثت — في ان تفعل شيئا للنادم المذكور ، ففي اعقاب الحرب هوت دقات اندري جدانوف المتوالية على رؤوس المثقفين والفنانين في الاتحاد السوفياتي ، وتماثلت حالة الواقعية الاشتراكية مع العجز التي بدأ يحدق بالبروتستانتية بعد ان كانت دعامة للفردية المبتكرة فأصبحت تتجه الى العقيدة الراسخة حيث تصنع الكنيسة الفكر للاخرين فتغنيهم عن عنائه (٦) . وبالتقاء الماركسية والبروتستانتية عند نقطة (الاملاء) انقطع اشعاعها معا بالنسبة للاديب الامريكي .

وقد يكون صحيحا ان محاكم التفتيش الماكارثية لعبت دورا في اشاعة الارهاب عندما كان كل مفكر يتهم بالسحر، كما عبر عن ذلك آرثر ميللر في مسرحيته **The Crucible** غير ان محاولة اعادة البيوريتانية التي كان تلامذة ت.س. ايليوت المخلصين يحاولون بعث الدعوة لها ، لم تستطع ايواء احد فانطلق الفزعون الى الفضاء الفسيح دون غاية يصدر عنهم « عويل » مرير .

كان الايرلنديون دائما يلعبون دور الاولاد الاشقياء في الحياة الادبية الانجليزية وعندما انتقل السحر الايرلندي الاسود الى أدباء بين الحربين في امريكا كان يوجين اونيل يكتب مسرحيات داكنة عنيفة . أما هذه المرة فقد كان ساحر جيل الصعاليك شاعر ولشي هوديلان توماس الذي استطاع بشعره وحياته الفاجعة أن يهز الاميركي النادم من الاعماق ، وكانت مشكلته قاصرة على تلك الدائرة البديهية التي تتالف من الميلاد والموت ، ولم يمض زمن قصير حتى تألف تلقائيا ثالوث فاجع من تشارلي باركر عازف الجاز وجاكسون بولوك المصور التجريدي وديلان توماس ، كل منهم يحثه حافز مدمر اجتاح حياته فيما بعد . وقد تجسد في حياتهم وانهيارهم رمز سقوط الانسان بين الانقاض ، وفي الايام التي كانت تنسج هالات القداسة حول رؤوس الثالوث بدأت نهاية جيل الصعاليك ، الجيل الذي كتب هذه النهاية عندما أعلن انه ليس التزاما او عقيدة أو طقوسا قبلية .

وكالداديين والسورياليين لم يكن الصعاليك في أول الامر يرسمون لانفسهم ان يصبحوا اتجاها كهنوتيا ، فقصة « على الطريق **On the Road** لجاك كيروك لم تهدف اسلوبا أدبيا جديدا ، بقدر ما كانت معولا حط في سخط شديد على الاساليب القائمة بعنف ليترك اثرا لا يمحى ، ومثل هذا الاتجاه لا ينعكس بأمانة في الاعمال التي ينتجها أصحابه . فقراءة كيروك مرتين متتاليتين تكشف عن ضعف حقيقي في الابداع ، وعما يمكن تسميته بالنفس القصير في الخلق ، كما ان دراسة شعر جنسبرج توضح قدرا كبيرا من النهاستية . فانتاج الصعاليك انفسهم مغموس حتى الاطراف في النزعة المدمرة . لهذا يصعب تمييز الفن الصحيح فيه من الزبد الناشيء عن فورة الحماس الثورة على القيم التي أصبحت راكدة . وقد حملت ريح الصعاليك كمية كبيرة من الانتاج الرديء ، وكان لا بد من زمن غير قصير يستغرق خلاله الناقد في البحث عن الاصالة .

لكن هناك سبيلا اخر للتعرف على هذه الهزة العنيفة

---

(٤) جوانا بيردن شخصية صاغها وليم فولكنر في قصته **Light in August** التي ظهرت سنة ١٩٣٢ وهي امرأة غارقة في الخطيئة وتعتقد ان الله هو الذي اراد للزنوج حالة الاسى التي يعيشون فيها في امريكا .

(5) The Grack up, F. Scott Fitzgerald - New Directions New York 1956

(6) Can Protestantism Hold its own in a Modern America by Russel Kirk - Fortune Magazine February 1916

وذلك في تلمس آثارها في اعمال الادباء والفنانين الذين لم يعلنوا موقفهم منها لكنهم ثابروا على الأنتاج خلال ظهورها في تحد شجاع .

في ربيع سنة ١٩٥٨ قدمت كلية الدراما في جامعة ييل مسرحية شعرية حديثة لارشيبالد ماكليش (١) كانت خلفيتها محنة النبي أيوب الذي ظهر كرجل اعمال عصري موسر اسمه J.B. يمتحن الله ولاءه فينزل به الكوارث التي يأبى برغمها ان يلعن خالقه ، حتى اذا ما أوشكت المسرحية على الانتهاء تعقد مصالحة بين الله والانسان . الذي يدرك أن الله لم يكن يستطيع ان يفعل غير ما فعل . ولقد انتشرت هذه المسرحية بعد تمثيلها في جامعة ييل على نطاق واسع ثم جرى تمثيلها في برودواي في أواخر سنة ١٩٥٨ ونالت نجاحا فائقا .

وكان أول ما عنى به النقاد فيها هي تلك المشكلة التي تبدو لاول وهلة انها مطلب المسرحية الرئيسي وهي مأساة الانسان عندما تتكشف له في نهاية التجربة حدود قدرة الله .

الى جانب هذا تناول ماكليش في المسرحية قضية اصرار الانسان على مقاومة ضغط عصره ليمتثل ويتلاءم . وبالرغم من ان علاقة البطل بالله كانت خيط الحياة الذي يتدفق في ارجاء المسرحية الا ان عنصر المأساة الحقيقي بدأ في مقاومته للضغط الذي تعرض له من اولئك الذين حاولوا اقناعه في العدول عن موقفه . ولما كانت القصة الواردة في سفر ايوب في الكتاب المقدس – وهي مصدر المسرحية الرئيسي – تشير الى ثلاثة من اصحابه أتوا ليرثوا له ويعزوه (ايوب ٢ – ١١) فقد أتى ماكليش بثلاثة آخرين ليرثوا لبطله ويعزوه وحاول كل منهم ان يكسبه نحوه . كان أحدهم محللا نفسيا يمثل الزمن الفرويدي الذي تمزقت فيه النفس الانسانية وعلقت شرائح وعقدا ، وكان الثاني قسا محترفا يؤمن بأن الاثم كامن في الانسان الذي لا يملك الا ان يسلم نفسه ، اما الثالث فكان ماركسيا ثوريا ، المصير بالنسبة له حتم تاريخي لا مفر منه . وقد ضيق هؤلاء الثلاثة على البطل أنفاسه لكنه تمكن من ان يفلت ، وبهذا ارتقى في موقفه حيث استطاع ان يسوي مشكلته مع الله .

ولم يكن يحتاج ماكليش الى «التصعلك» ليعلن اصرار الامريكي على الانفلات من قيد الالتزام ، فقبل الصعاليك وبعدهم استمر ويستمر هذا الخيط الخفي من فلسفة « اللافلسفة » يسري في الادب الاميركي ويعطيه طابعا ليس من العسير تميزه .

نيويورك — أكرم الميداني

---

٧) ارشبالد ماكليش شاعر كبير من فترة ما بين الحربين نال جائزة بوليتزر ثلاث مرات . عند صدور ملحمته الكبرى Conquistador «الفاتح» . وعند ظهور مجموعته الشعرية ثم بعد صدور مسرحيته J. B. وقد يبدو اسم هذه المسرحية غريبا فهو يتألف من حرفين فالشائع لدى كبار المديرين ورجال الاعمال في امريكا انهم يرمزون بالحروف الاولى من اسمائهم عندما يوقعون ثم يعرفون بعد ذلك بهذا الرمز . وقد تعمد ماكليش استخدام هذين الحرفين للتشابه بينهما وبين اسم النبي ايوب Job .

صدر حديثا

عن دار الاداب

غادة السمان

في

مجموعتها القصصية

عيناك قدري

■ « غادة السمان رائعة رائعة ، باسلوبها وجوها . واني أتمنى لها مستقبلا رائعا » .

توفيق يوسف عواد

■ « غادة موهبة لفحتها عاصفة الحياة ، فصدعت واستعرت تنشد السر وتنتجع الرؤى، تقطف من لهيب الاعصار وتركض وراء السراب. فكر رأى وذاق ، ذاق النبع الاصيل نبع الحياة ، فكان من اصدق الصيحات في ادبنا العربي الحديث ، وقلم تنطق الحياة الصادقة فيه، فلا يعرف الزيف اليه سبيلا . »

عبدالله عبد الدائم

■ « فكر جريء وقلم مجدد ، وبداية تبشر بمستقبل خصب في فن القصة العربية ، ان غادة السمان تقوض الاطر التقليدية وتشق طريقها في الحياة لتسلك درب الابداع والخلود . »

نور الدين حاطوم

■ «لا استطيع الا ان اتوقع من هذه الكاتبة غزوات ضخمة في دنيا الادب ، وانا لا اتصور ان تقديمها بهذه القوة سيملأها بالغرور . »

موسى صبري

■ « اتوسم في قلم غادة طاقة جديرة بالإلتفات ، فهو حتما ليس من تلك الاقلام الانثوية التي تبيع وتشترى في سوق التهريج » .

سميرة عزام